

الفخ

لا يد وأن تكتبوا أشياء سلبية عنى، فقد كنت غيباً.

ريتشارد كيلى سميث للمؤلفين فى ٢٠ أغسطس ٢٠٠٩

شعر الزوجان سميث بارتياح كاف جعلهم يجويون أوروبا، ويقابلون بشكل متكرر أفراد عائلتهم فى مواقع حدّثوها مسبقاً، وفى إهدى المناسبات سافرا إلى مدينة يوروديزنى الجديدة على مشارف باريس لقضاء الوقت مع أحفادهما. وفى مناسبة أخرى سافرا إلى جنوب فرنسا ليشهدا ابنهما الأكبر راندى وهو يشارك فى سباق القوارب الشراعية.

كان راندى سميث بحاراً مشهوراً، يظهر على أغلفة العديد من أهم مجلات الإبحار فى العالم، ولعب نور القبطان أمام كيفين كوستنر فى فيلم "وتروورلد" أو عالم الماء، وبيرس بروسنان فى فيلم ذا "توماس كراون أفير" أو "علاقة توماس كراون الغرامية". وقاد القارب الشراعى الضخم إلى خارج مانهاتن بينما رينيه روسو تنظر إليه فى إجلال. وفاز أيضاً بميداليتين أولمبيتين بكأس أمريكا عام ١٩٨٨ .

بعد ٩ أعوام من الإقامة فى إسبانيا، بلغ الزوجان سميث سن الخامسة والستين. وفى مخاطرة متهورة محيرة، قرر سميث التقدم لطلب فوائد الضمان الاجتماعى الأمريكى، مراهناً على عدم تمكن أى موظف متدنى المستوى فى نظام الضمان الاجتماعى الأمريكى من التعرف عليه. واتصل بالسفارة الأمريكية فى مدريد، وأعطاهم اسمه الحقيقى ورقم الضمان الاجتماعى الخاص به، وقدم طلباً بإرسال دفعاته الشهرية إلى حسابهما فى مصرف بانكو بيلباو فى مالاقا.

ومن الواضح أن رهان سميث كان في محله، حيث لم يستطع موظفو المستوى الأدنى في الحكومة الأمريكية التعرف على المتهم الهارب، وبدأوا يرسلون مبلغ ١٦٠٠ دولار شهرياً إلى ذلك الحساب. كانت مخاطرة وقحة طائشة، وبدا أنها أتت ثمارها. وبعد عام، أكملت إميلي عامها الـ٦٥ وكان يحق لها مبلغ إعانة الزوجة وقيمته ٤٠٠ دولار شهرياً. وقُبل طلبها لهذا المبلغ أيضاً. ووفرت إيداعات الضمان الاجتماعي المنتظمة دخلاً شهرياً إضافياً رفع من مستوى حياة الزوجين سميث والتي كانت إميلي تصفه بالرعوى.

وبمرور الأعوام، تخليا عن حذرهما كلياً. واحتفلا بحريتهما مجدداً في منتصف ليلة ١٣ ديسمبر عام ١٩٩٩، بمشاهدة الألعاب النارية فوق مالاقا مع بدء الألفية الجديدة. ولادة ١٥ عاماً، تمكن الزوجان سميث من تقاضى السلطات بينما يعيشان في جنتهما الصغيرة.

فى يونيو ٢٠٠١، طلب مدير مصرف بانكو بيلباو من "جون شيلر" أن يمر على المصرف لعقد اجتماع قصير. اعتذر مدير المصرف وأخبر سميث أنه لكى يتمكن من الاستمرار فى استخدام هذا الحساب، فعليه الحصول على ترخيص مواطن غير مقيم، وسلم سميث نسخة من الاستمارة التى عليه ملؤها ليأخذها لاحقاً إلى قسم شرطة مالاكا ليختموها له. ووصف الأمر بأنه لا يتعدى كونه إجراءً بيروقراطياً روتينياً. واشتكى سميث بأنه استطاع استخدام هذا الحساب طوال سنوات بدون مشاكل، إذن لم الجلبة الآن؟! هز مدير المصرف كتفيه وكأنه يعبر عن استيائه من هذا الأمر السخيف أيضاً، لكنه عليه أن يتبع الإجراءات.

ومن المصرف، قاد الزوجان سميث السيارة إلى قسم شرطة مالاكا وركناها، وبرشاقة صعدا السلم وصولاً للضابط الجالس فى المدخل وراء أحد المكاتب. وأرياه الاستمارة التى ملأها وأخبراه أنهما يريدان أن يخطماها. فأخذ الضابط الاستمارة ونظر إليها بتمعن، وأعطاهما كعباً بموعد العودة وهو يشرح لهما بأن عليهما العودة فى ٩ يوليو لاستلام ترخيصهما. اعتادت الأمور أن تسير ببطء فى مالاكا.

وكما تم توجيههما عاد الزوجان سميث فى ٩ يوليو ٢٠٠١، وهما ينتظران ألا يستغرق الأمر أكثر من ٥ دقائق. وما أن وصلا لقسم الشرطة، تم توجيههما للذهاب لمنطقة المكتب الخلفى والانتظار. وبعدما مرت حوالى ١٥ دقيقة ولم يأت أحد، التفت سميث إلى إمبلى وسألها:

"لم يستغرقون كل هذا الوقت؟ سنتأخر عن رحلة السير على الشاطئ". وبعد ٥ دقائق دخل الغرفة ضابط طويل أزرق العينين يرتدى زياً أسود، وسار حتى جهاز الفاكس فى الركن، وأخرج ورقة كانت قد وصلت لتوها. ثم سار تجاههما، وسلم سميث الفاكس بدون أن ينطق بكلمة واحدة، وانتظر ليشاهد ردة فعله. ونظر سميث

إلى الورقة وصدم عندما رأى صورة أبيض وأسود له يبدو فيها أصغر بعشرين عاماً عن عمره البالغ آنذاك ٧٢ عاماً.

ولاحظ كلمة إنتربول أعلى الورقة. وطفى عليه إحساس مفاجئ بالفزع وتقلصت معدته قلقاً. فبعد ١٦ عاماً كان قد نسى تقريباً وضعه كهارب، وبطلبه فوائد الضمان الاجتماعي، فقد أشار مباشرة إلى موقعه. وبطلبه رخصة المواطن غير المقيم وقع في الشرك المعد له بحنكة، ودخل قسم الشرطة، وسلم نفسه. وبالنسبة لشخص بالغ الذكاء، كان هذا غباء يفوق التصور.

وبعد لحظة لا بد وأنها بدت كدهر، سأله الضابط "هل هذا أنت؟".

كان سميت مصدوماً لكنه أكد أن الصورة تبدو له. فالتفت الضابط إلى إميلي وقال:

حسناً، يمكنك الانصراف الآن، سألقى القبض على هذا الرجل.

لم تجد إميلي ما تقوله وفي الحال اعتراها الشحوب فيما بدأ الضابط يقيد زوجها بالأصفاد. بين سميت أنه يحتاج لأن يعطى زوجته مفاتيح السيارة لتذهب بها إلى المنزل. ومد يديه بمفاتيح السيارة فقبضت عليهما إميلي بقوة. نزع الضابط يديه، ولفهما بقوة وراء ظهره ووضع الأصفاد حول معصميه. لا أحضان ولا قبيلات. وقفت إميلي في وسط الغرفة وهي في حالة صدمة هائلة بينما كان زوجها منذ حوالي ٥٠ عاماً يُصطحب حتى غاب عن الأنظار. لم يدركا الأمر في تلك اللحظة، لكن كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يراها فيها سميت كرجل حر ولأعوام تالية.

وحُشِر سميت في زنزانة خرسانية بلا نوافذ بها منطقة إسمنتية مرتفعة تستخدم كفراش، وعليها بطانيتان قذرتان. وكان المرحاض في آخر الرواق عبارة عن ثقب

بسيط في الأرضية. ولم يكن هناك ورق تواليت. وكان الطعام يقدم في أوعية بلاستيكية صغيرة. ولم يكن هناك حراس في الليل، لذا عندما كان السجين ذو الثانية وسبعين سنة يحتاج للتبول بسبب البروستاتا المتضخمة، كان يتبول على أرضية زنزانته.

كانت الليلة الأولى بشعة. ومضى يستعيد العملية التي أدت للقبض عليه مراراً وتكراراً وبدأ يدرك كم كان أحمق، إذ فاتته كل الإشارات الواضحة المتجلية أمام عينيه. وأدرك أنه كان لديه العديد من الفرص منذ بداية الأحداث لتجنب ذلك المصير. إذ كان بإمكانه تجنب طلب الضمان الاجتماعي، وتجنب الذهاب إلى قسم الشرطة... مرتين. وكان بإمكانه الخروج من القسم ما إن وصله. وكان بإمكانه إنكار أنه هو ذاته الرجل الذي في الصورة.

وشرد عقله إلى ما قبل ١٨ عاماً، حيث كان بإمكانه الامتناع عن إخبار العميل الفدرالي عن شحنة الكرايترون الخاطئة بعد حادث اقتحام شركته، وكان بإمكانه الامتناع عن التوقيع على وثيقة إسقاط التقادم، وكان بإمكانه الامتناع عن إرسال شحنة الكرايترون الأخيرة بعدما قرأ التحذير، وكان بإمكانه البقاء في شركة روكويل وتجنب الأمر برمته، برغم أن ذلك كان يعنى حرمانه من نوادي اليخوت والعقارات الشاطئية. وكانت قائمة التفاصيل التي تدور بخلده طويلة طويلة.

عادت إميلي إلى شقتيها مذهولة ومرتبكة. فخلال لحظة واحدة انهار عالمها باكمله للمرة الثانية. وعندما علم المسؤولون في واشنطن بواقعة القبض عليه، لم يسعدوا بذلك، إذ كان من الأفضل تناسي الماضي الفاسد. لكن الزوجين سميت بتصرفاتهما، بدا وكأنهما كانا يتوسلان القبض عليهما ولم يكن لدى الإنترنت خيار سوى اتباع أدنى حد من الإجراءات.

وعندما سمع ميلتشان أخبار القبض على سميث، عرف مثل أى أحد آخر قرأ الجريدة فى ذلك اليوم، أنه سيكون خطباً جلاً، وسيُذكر اسمه مجدداً فيما يتعلق بما أسماه قصة الكرايرون متناهية الغباء. واجتاحته عاصفة من المشاعر المتضاربة.

فمن ناحية كان يستشيط غضباً من الإهمال الرهيب الذى ساد الموقف برمته، ومن ناحية أخرى، كان يشعر بالأسى لأجلهما. إذ لم يكن سميث فى النهاية سوى واحد من الكثيرين الذين يجندهم ميلتشان، ولم يكن أكثرهم أهمية. بل كان بالأحرى أكثرهم مشاكل. فى اليوم التالى، مثل سميث أمام قاض أمر أن يحبس فى سجن ألهورين دى لا تور، على بعد حوالى ٢٥ دقيقة بالسيارة من مالاقا. وذكر القاضى أنه قد يُنقل لاحقاً إلى ريال مدريد ليمثل أمام المحكمة الدولية لتسليم المتهمين.

وكان سجن ألهورين دى لا تور كابوساً. وجد سميث، الرقيق المتعلم المثقف، نفسه فجأة فى حضرة كل مجرم يمكن تصوره.

كان بكل زنزانة مرحاض معدنى بدائى بلا غطاء وحوض غسيل معدنى صغير ليغسل فيه ملابسه الداخلية المتسخة، وجواربه، وأدوات الأكل، وصينية الطعام. أسوأ شىء كان عدم وجود ماء لدفق المراض مرتين فى اليوم. وكان عليه ملأ دلو الاستحمام ثم صبه فى المراض للتخلص من الرائحة البشعة الكريهة. وكان هناك الكثير من السجناء المصابين بالإيدز، لحد منع مغسلة السجن من قبول الملابس الداخلية أو الجوارب. وتلك كان يجب غسلها باليد فى حوض الغسيل المعدنى الصغير. ولم تكن هناك صابونة غسيل. وكان الجميع يدخنون تقريباً وكان من المستحيل الهروب من الدخان حتى فى زنزانات النوم (جاء ذلك فى وصف شيلر لنظام السجون).

واستحالت الأيام لأسابيع.

كان مسموحاً لإميلى بالزيارة مرة أسبوعياً. وكانا يتحدثان عبر حاجز زجاجى سميك به مكبر صوت صغير، على طراز فيلم "ميدنايت إكسبريس". وكما قال سميث:

"كانت الزيارات الزوجية أحد الجوانب اللطيفة لنظام السجون الإسبانى. ملأت استمارة سجناء أطلب فيها زيارة خاصة فى غرفة نوم مجهزة بفراش مزدوج، وملابس نظيفة، وحمام به دش. كانت العلاقات الخاصة مسموحاً بها مرتين شهرياً فى زيارات مدة كل منها ساعة".

"كنت فى سعادة غامرة عندما أبلغونى أننى مُنحت تصريحاً بزيارة خاصة من زوجتى التى كان زواجى بها قد استمر لخمسين عاماً بعد ٢٠ يوماً طوالاً مضية من الابتعاد عنها. وكنا نشعر بالاسترخاء التام أثناء تلك الزيارات الحميمة، ذلك التقليد الرحيم من جانب السجون الإسبانية".

أثناء إحدى الزيارات الزوجية، احتفل ريتشارد وإميلى بذكرى زواجهما الخمسين.

وألقت ظروف السجن الصعبة بحملها الثقيل على كاهل سميث، وفى مخيلته بدأ يقارن بين موقفه وموقف صديقه القديم ميلتشان. وأصبح أسير فكرة "آه لو لم أقابل ميلتشان يوماً! لتغير كل شيء". تمنى لو أنه بقى فى شركة روكويل ونسى أوهام النجاح وامتلاك شركته الخاصة. وذات يوم فى يأسه، كتب خطاباً أعطاه لإميلى يطلب منها إرساله بالفاكس إلى ميلتشان، جاء به التالى:

التاريخ: ٢٢ أغسطس ٢٠٠١ .

المرسل إليه: أرنون ميلتشان منتج الأفلام الشهير.

المرسل: ريتشارد كيلي سميث، نزيل سجن ألهورين دى لا تور فى مالاقا،

إسبانيا.

ويرسل أيضاً إلى: ديورا بن إسحاق.

عزيزى أرنون،

أتمنى حقاً لو عرفت كيف هو الحال فى السجن. يمكننى أن أخبرك، أن الوضع ليس مبهجاً. أسوأ شىء أننى كنت بعيداً عن زوجتى، فى زكري زواجنا الخمسين، والتي كانت فى ١ أغسطس ٢٠٠١ .

أدرك أنك تظن أنك لم ترتكب أى خطأ، لكنك فى الواقع، قد فعلت. أنت السبب فى وجودى فى السجن، لأننى أرسلت إلى شركتك ميلتشان بروس فى تل أبيب، بعض الأنابيب الإلكترونية المسماة بالكرائيترون. أتذكر؟ أظن أنك تذكرها.

استخدمت تراخيص وزارة التجارة بدلاً من تراخيص النخائر لذا ارتأت الحكومة الأمريكية أننى يجب أن أدخل السجن لمدة ١٠٥ عام. قرأت فى الصحف أنك بعت أفلاماً بـ ٤٥٠ مليون دولار إلى قناة تشانل بلاس، القناة التلفزيونية الخاصة بالأفلام المشفرة. أمل أن تكون قد أودعت معظم تلك الأموال فى حسابك السرى فى يونيو بانك فى زيوريخ مثل نسبة الـ ٦٠٪ أرباح من كل شىء، ومنها الكرايتون الذى كنت أشحنه إلى شركة هيلى تريدينغ. وأتوقع ألا يكون أحد فى الحكومة الإسرائيلية مهتماً بحقيقة أنك كنت تغتصب نسبة ٦٠٪ كأرباح على كل شىء أرسلته شركة ميلكو إنترناشونال إلى شركة ميلتشان بروس. فبعد كل شىء كان نتياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي قبل شارون، يعمل لصالح شركة ميلتشان بروس! هل من الممكن أن جزءاً من نسبة الـ ٦٠٪ أرباح التى كنت تغتصبها كانت تذهب لمسئولين فى الحكومة الإسرائيلية؟

شاهدت أيضاً فيلم بريتي وومان الذي أنتجته، تهانى! كان فيلماً رائعاً.

"ما شعورك وأنت تملك كل هذا المال؟ لطالما تساءلت كيف سيكون شعورى إن امتلكت المليار ونصف المليار دولار التي تشتتر أنت بامتلاكها. ما كنت لأستطيع أن أكل أكثر مما أكل، ولا أن تكون سيارتى أكثر سرعة على الطريق السريع، ولا فراشى أكثر راحة، ولا أن تطارحنى الغرام امرأة سوى زوجتى منذ ٥٠ عاماً، ولا أن يكون حاسوبى أسرع مما هو. ماذا تفعل بهذا المال؟ هل هو رضا الشعور بالقوة؟ لست على درجة تعليم تعادلنى، أحمل شهادة الدكتوراه. لذا أنا أفوقك عقلياً. أعتقد أن قوة العقل أهم من قوة المال. لكن لكل منهما قوته الخاصة.

"أرنون! دعنى أخبرك القليل عن الحال فى السجن: أولاً، لا تعليمك ولا مالك يعينان أى شىء لحراس السجن، فما أنت إلا سجين آخر، مثل مدمن المخدرات، مثل اللصوص المسلحين، مثل القتلة، والأشخاص الذين ارتكبوا جرائم نصب ضد البنوك والحكومات. وعليك أن تأكل ما يقدمه السجن فى أوقات الوجبات، بلا اختيار. عليك اتباع روتين السجن: تأوى إلى الفراش عندما يأمرؤك، وتذهب لمناطق التريض عندما يصرح لك. ما رأيك أن تستبدل أسلوب حياتك الحالى بأسلوب حياة السجن؟ يمكننى أن أخبرك من الآن أن هذا الأمر لن يعجبك!!

لذا يا أرنون، أشكرك على العمل الذى أدبته لشركة ميلتشان بروس. والآن أتعلم كيف هى حياة السجن. لم أظن يوماً أن هذا قد يحدث لى. ربما قد تكفل لك المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها إيجاد مخرج آمن من أى موقف أياً كان الجرم الذى ارتكبه.

"أرنون! إن تم تسليمى للولايات المتحدة ومثلت للمحاكمة بتهمة شحن الكرايترون إلى شركتك ميلتشان بروس، سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت أنت

طرفاً فيها، أنا واثق من ذلك.

لا أقدر لك أنك لم ترفع إصبعاً واحداً لمساعدتي بعد إدانتى أو بعدما فررت إلى إسبانيا. أعرف أنك كنت تعلم مكانى فى إسبانيا. كانت ديورا ستزورنى لكنك ألفت زيارتها. هل نصحك نتتياهو بعدم مساعدتى؟ أم أنها كانت فكرتك؟ أفترض أنك أمرت ديورا ألا تزورنى ما أن أبلغتك بمكانى فى إسبانيا. لا أزال أشعر بالرهبة من المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها، لكنك تشعرنى بالغثيان.

صديقك السابق

ريتشارد كيلى سميث

عندما قرأت إميلي ذلك الخطاب أدركت فى الحال أن زوجها قد تخلى عن فطنته. ولم ترسله قط، ولم يره ميلتشان حتى اليوم الذى سلمناه إياه. حيث قال:

"الخطاب يعكس درجة كبيرة من سوء الإدراك من جانب سميث، والذي لم يعرف يوماً أن نسبتي المفترضة من الأرباح لم تؤل إلى قط. قلة المعرفة أدت بسميث إلى أن يكيل الاتهامات الرعناء فى وقت محتته.

ومضى قائلاً "لم أعرف، نتتياهو ولم تكن لى علاقة به حتى التسعينيات، بعد إدانة سميث عام ١٩٨٥. ولم أعرف بمكان سميث حتى تم القبض عليه فى مالاقا بسبب طلب لاكم والموساد منى أن أنأى بنفسى كليا عن تلك القضية وأتركهما يتوليانها".

ثبت أن تهديد سميث حيث قال "إن تم ترحيلى... سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت طرفاً فيها، بمرور الوقت" كان تهديداً خاوياً، ولم توجه أى اتهامات لميلتشان.

كانت الولايات المتحدة تعرف بوضع سميث فى سجن مالاقا لأنهم أرسلوا ممثلاً

من السفارة ليزوره، لكنهم استغرقوا وقتاً طويلاً في الحديث عن عملية تسليمه. كانوا يعرفون أنه محاط بحثالة المجتمع، من القتلة، إلى المدمنين المصابين بالإيدز، إلى تجار المخدرات، إلى لصوص السطو المسلح. كانت المشاجرات تتدلع باستمرار من حوله. وشعر بأن حياته في خطر وعاش في حالة خوف مستمرة. وفكر جدياً في الانتحار، لكن التفكير في التأثير المعنوي المحتمل لموته على إميلي وأبنائه حال دون قيامه بذلك. كان كل يوم كالكابوس. وفي أحلك لحظاته الشخصية في مستشفى السجن شاهد الطائرة الثانية تصطدم بالبرجين المزدوجين أو مركز التجارة العالمي في نيويورك، وأخرى تصطدم بالبنتاغون. وتذكر سيره في أروقة وزارة الدفاع البنتاغون كعضو مبجل في المجلس الاستشاري العلمي، ولم يتمالك نفسه من مقارنة تلك الأيام المجيدة بورطته الحالية.

بطلول أواخر سبتمبر ٢٠٠١، كان قد قرر التخلي عن فكرة مقاومة تسليمه أو إنقاذ حياته الرعوية في مالاقا، واستعدت إميلي لشحن أكثر متعلقاتهم قيمة إلى الولايات المتحدة.

وأخيراً في ١٥ نوفمبر ٢٠٠١، بعد أكثر من ١٦ عاماً من هروبه المحموم على رحلة لوفتهانزا إلى فرانكفورت، ألمانيا، تم إعادة ريتشارد كيلى سميث إلى الولايات المتحدة. اقتيد إلى خارج السجن بدون أصفاد إلى السيارة الفولفو السوداء، يصحبه مسئولان من وزارة العدل الإسبانية في رحلة الخمس ساعات بالسيارة من مالاقا إلى مدريد، حيث قضى ليلته الأخيرة في إسبانيا في زنزانة مريحة نسبياً. في اليوم التالي في الواحدة ظهراً، غادر سجن مدريد وتقابل مع مارشالين أمريكيين بارزين.

في يوم الجمعة الموافق ١٦ نوفمبر ٢٠٠١، غادر على رحلة لشركة دلتا إلى لوس أنجلوس مروراً باتلانتا، ولم يعد إلى إسبانيا مجدداً أبداً. وصل إلى مطار لوس

أنجلوس الدولي فى الـ ٨:٤٥ مساءً وتم اصطحابه فى الحال إلى مركز الاحتجاز الفدرالى فى وسط لوس أنجلوس، حيث تم إيداعه بزناينة لشخصين. كانت مقارنة بسجن مالاقا فارمة للغاية، بالرغم أنها كانت بلا زيارات زوجية. وخلال أيام، قامت المباحث الفدرالية باستجوابه بشكل متكرر.

ويعد أكثر من شهر من عودة سميث إلى الولايات المتحدة، كان مكتب المدعى العام الأمريكى يعيد التفكير فى قضيته. وأنداك، لم يعد الكرايرون يتطلب ترخيص تصدير ذخائر على الإطلاق. وأعيد معظم الكرايرون الذى شحنه سميث لشركة هيلى تريدينغ إلى الولايات المتحدة وفقاً لاتفاقية بين الحكومتين.

وفى ظل تلك المستجدات الأخيرة، بدأت فكرة قضاء رجل عجوز، وجدّ متزوج، ١٠٥ عام فى السجن بسبب ما كان فى الأساس خطأ إدارياً أثناء شحن أحد الأغراض لمن كان بعد كل شىء، حليفاً رئيسياً للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، تبدو أكثر فأكثر كردة فعل هستيرية تصاعدت إلى عقاب قاس واستثنائى، خاصة بالنظر إلى ما تكشف بالفعل. فالافتراضات القوية التى سادت فى عام ١٩٨٥ والتى ذهبت إلى أن الكرايرون لا يمثل سوى قمة جبل الجليد فى أنشطة شركة ميلكو، مع احتمال صوابها آنذاك، لم يعد لها نفس القدر من الأهمية بعد مرور ١٦ عاماً ونصف العام. ثم كان هناك تخوف ألا تقبل أى هيئة محلفين بإرسال رجل عجوز ليقضى بقية حياته فى السجن، بينما تجلس زوجته وأبناؤه وأحفاده فى قاعة المحكمة يتعذبون.

وفى ٢٠ ديسمبر ٢٠٠١، لان جانب الحكومة الأمريكية، إذ عرضت صفقة استئناف مخففة بشدة، ويعد بضعة أيام من المفاوضات، تم الاتفاق بأن يدفع سميث بأنه مذنب بتهمة واحدة وهى انتهاك القانون النظامى لتصدير الأسلحة الأمريكية، وبتهمة الكذب بشأن محتويات شحنات الكرايرون. وتم تحديد جلسة النطق بالحكم

فى ٢٩ أبريل ٢٠٠٢، على أن يبقى سميث فى السجن طيلة تلك الفترة على الأقل.

وللاستعداد للنطق بالحكم، طلبت إمبلى من كل شخص أمكنها التوصل إليه كتابة شهادات لصالح شخصية زوجها. وكان هذا أصدق اختبار لأصدقائه المخلصين، أولئك المستعدون للمجابهة ولارتباط أسمائهم بما يواجهه شخص آخر من متاعب قانونية، فى وقت كان أسهل الخيارات فيه هو التزام الصمت.

وعلى الرغم من أن كثيراً ممن كان المأمول منهم أن يهبوا ويبادروا بالمساعدة تجاهلوا الطلب، فقد تقدم عدد لا بأس به، بعضهم لم يكن متوقفاً، بالمساعدة، من بينهم أصدقاء الدراسة القدامى، وحببية سابقة من أيام الجامعة، وعدد من أصدقائه فى العمل، والعديد من أفراد العائلة، وبضعة من أصدقاء اليخوت، وكثير من أصدقاء نادى المتحدثين بالإنجليزية والنادى الأمريكى فى مالاقا، ثم كان هناك خطاب من مدير شركة ميلتشان بروس لمتد جاء فيه ما يلى:

إلى من يهمه الأمر:

أنا شريك عمل سابق للدكتور ريتشارد كيلى سميث، تم تعيينى من قبل شركة هيلى تريدينغ لمتد، وهى شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس لمتد ومن قبل شركة ميلتشان بروس لمتد، منذ عام ١٩٦٦ وتقاعدت فى عام ٢٠٠٠. وباسم شركتى كانت لى علاقات عمل مقربة للغاية من الدكتور ريتشارد كيلى سميث منذ عام ١٩٧٢ وحتى القبض عليه.

وبالإضافة لعلاقات العمل التى جمعتنا، أصبح الدكتور سميث وزوجته وأبناؤه، أصدقاء مقربين للغاية لى ولزوجى. تقابلنا عدة مرات فى إسرائيل وأيضاً فى لوس أنجلوس عندما زرناها لحضور زفاف ابنته. ومن خلال سنوات عديدة من العلاقات الحميمة، أشعر أننى أعرف الدكتور سميث جيداً. إنه شخص رائع، صادق، مخلص،

رجل عائلة فخور وأمريكي فخور. ليس لدى أدنى شك أنه مواطن يمثل للقانون ولم يكن ليفعل أى شيء متعمداً خرق القانون. لظالما أرشدنى ووجهنى فى الإجراءات القانونية الأمريكية وفيما يجب اتباعه أو تجنبه.

أنا مقتنعة كلياً: أنه إذا كان قد ارتكب أى خطأ، فقد فعل ذلك بحسن نية وبدون أدنى سوء يضره. وأنا مقتنعة أنه إن كان له أن يستأنف حياته العملية، فسيكون بالغ الحذر فى المستقبل ولن يتكرر سلوكه فى انتهاك القانون.

الدكتور سميث ليس شاباً. وعلى حد علمى فهو يبلغ من العمر ٧٢ عاماً ولا يتمتع بصحة جيدة. ولقد دفع بالفعل ثمناً باهظاً مقابل الخطأ الذى ارتكبه. ولسنوات عدة، تنازل عن اتصاله اليومي بعائلته التى يعزها بل ويعشقها، وعاش بعيداً عن بلده، وخسر كل ما عمل لأجله طيلة حياته. أتمنى أن تضعوا فى اعتباركم كل تلك العوامل لتجنوا مكاناً فى قلوبكم للرحمة والعطف عندما تنطقون بالحكم.

دييورا بن إسحاق

فى ٢٩ أبريل عام ٢٠٠٢، دخل ريتشارد كيلي سميث قاعة المحكمة ومعنوياته مرتفعة على الرغم من أنه كان فى الثانية والسبعين من عمره وأجبر على ارتداء زى السجن البرتقالى وكان مكبل الكاحلين بالأصفاد، والأغلال تحيط بوسطه وملتصقة بأصفاد يديه، على طراز معتقلى غوانتانامو باى. أوصى ضباط المراقبة بأن يُطلق سراح الرجل العجوز ويكتفى بالمدة التى قضاه فى الحبس، والتى بلغت عشرة أشهر منذ القبض عليه فى مالاقا. وطمأنه محاموه وكذلك زملائه من السجناء أن القضاة عادة ما يمثلون لتوصيات ضباط المراقبة. وامتلات قاعة المحكمة بأفراد العائلة وبالأصدقاء الداعمين، وبأبنائه وزوجته وبزملائه منذ كان طالباً فى الجامعة، وأصدقائه فى شركة روكويل، وعدد من الصحفيين. وأخيراً، حانت لحظة الحقيقة.

كانت القاضية باملا أن رايمر، وهي نفس القاضية التي كانت في قاعة المحكمة عندما تغيب سميث عن جلسة محاكمته في أغسطس ١٩٨٥، قد تم ترقيتها مذاك لترأس محكمة الاستئناف الفدرالية. واتخذت خطوة غير معهودة إذ تتحت عن موضعها لكي تحاكم الرجل الذي شعرت أنه أهانها هي والنظام القضائي منذ حوالي ١٧ عاماً. ومن منطلق الخبرة، شعرت بأن قاعة المحكمة ستكون مكتظة بالمراسلين الصحفيين.

وإذ تبوأ مقعدها على منصة القضاء، بدأت الجلسة بخطاب افتتاحي، صرحت فيه بأن سميث قضى الستة عشر عاماً في موقع خلاب في إسبانيا. وقالت إنها لا تصدق أنه نسي طلب عام ١٩٧٥ لاستصدار ترخيص تصدير نخائر لطلابية الكرايترون التي تم إلغاؤها.

لم تذكر له إسهاماته العديدة في مجال الدفاع العسكري عن الولايات المتحدة على مدار سنين عدة في نروة الحرب الباردة. ولم تكن عليه لمحتته الطويلة، ومنها حبسه في السجن، في إسبانيا. ولم تُلَقْ بالألمحوظة أن معظم الكرايترون قد تمت استعادته ولا أن التراخيص لم تعد مطلوبة لتصدير الكرايترون. وتجاهلت حقيقة أن كل الشحنات المعنية كانت إلى أحد أقرب حلفاء الولايات المتحدة في العالم، وليس لدولة عدوة.

ثم حكمت القاضية رايمر عليه بالسجن لمدة أربعين شهراً وبوضعه تحت المراقبة لعامين وبغرامة ٢٠ ألف دولار. صُدم لذلك أفراد العائلة والأصدقاء في قاعة المحكمة، وشعروا بالتحقير والانزعاج. وجلس سميث في قاعة المحكمة عاجزاً عن الحركة أو التفكير. كان المشهد وكأنه مشهد من أحد أفلام ميلتشان، على الرغم من أنه كان حقيقياً.

تم اقتياده مكبلاً بالأصفاد خارج قاعة المحكمة وعودة إلى زنزانته بينما كانت أسرته تنتظر في فزع. ثم تم نقله لاحقاً إلى مجمع سجون فدرالي في لومبوك شمال سانتا باربرا، حيث تم احتجازه حتى يُقَلَّ إلى معسكر سجون في تافت، كاليفورنيا في أبريل ٢٠٠٤ .

وفي سبتمبر ٢٠٠٤ تم نقله إلى منزل وسيط في تافت. وفي يناير ٢٠٠٥ أُطلق سراحه أخيراً ووضع تحت المراقبة وتم السماح له بالإقامة في مقطورة متنقلة متواضعة في لومبوك، كاليفورنيا. والتأم شمله أخيراً بزوجه الحبيبة إميلي، والتي وقفت صامدة بجواره بشجاعة طوال تلك المحنة التي استمرت لعقود.

وفي ١٥ ديسمبر عام ٢٠٠٥، وهو في الخامسة والسبعين من عمره، تم استدعاء سميت لاستجوابه في مكاتب المباحث الفدرالية في ويلشاير بوليفارد في لوس أنجلوس. وأثناء التحقيق الذي استمر ثلاث ساعات والذي أمطروه فيه بالأسئلة السريعة، طُلب منه سرد التفاصيل الكاملة لعلاقته بميلتشان منذ أن التقاه في أواخر الستينيات، حتى آخر اتصال به عام ١٩٨٣ .

وفي مايو ٢٠٠٦، أنهى سميت فترة المراقبة، ولأول مرة منذ عام ١٩٨٥ لم يكن سجين النظام ولا هارباً منه. وبإطلاق سراحه، انتهت قصة ميلكو للأبد، والتي تفادى ميلتشان التورط فيها مجدداً.

عقب تلك الأزمة، جلس الزوجان سميت لتوثيق قصتهما في كتيب واقعي بعنوان "الاتهام غير المنطقي والسجن، أو تصدير الكرايترون إلى إسرائيل". ومجدداً استخدم ريتشارد اسمه الحركي الذي كان قد استخدمه لفترة طويلة أي الدكتور جون شيلر وأعطى كل الشخصيات المعنية أسماء مستعارة. وأسمى شخصيته الدكتور إرنست كيلي. وأسمى زوجته إميلي أني وأسمى ميلتشان داني روتو.

وفى رسالة إلكترونية إلينا، أكد سميث أن كل المعلومات التى نحتاجها نستطيع أن نجدها فى كتاباته. ويمكننا أن نقول بكل ثقة إن القليلين هم الذين استطاعوا الربط بين الدكتور جون شيلر والهارب الشهير من الثمانينيات حتى الآن. وأنهما الشخص ذاته فى واقع الأمر.

ونظراً لكل ما حدث، وجد سميث أنه من المستحيل له التوافق مع واقع ميلتشان وواقعه، إذ إنه يعيش فى منزل متنقل بجوار قضبان السكة الحديد، ويتخيل صديقه السابق يتنقل بطائرته الخاصة بين دول العالم، كانت تلك حقيقة مريرة بالنسبة لرجل كان يوماً يعمل فى أهم شركة لرواد مهندسى الفضاء فى الولايات المتحدة.

وبالتأكيد، يرى ميلتشان الأمر من منظور مختلف كلياً. ليس من المبالغة القول إن ميلتشان يرى أن إسرائيل أنقذت سميث فى الواقع من مصير أسوأ بكثير، وأنه يعتقد أن سميث نفسه -والذى تصرف تصرفات خرقاء فى مناسبات عدة- مسئول شخصياً عن أزمته. وأن تصرفاته عرضت ميلتشان للخطر وأخرجت إسرائيل بل وحتى الولايات المتحدة بكل طريقة ممكنة.

هناك أكثر من طريقة لرؤية الأمر، لكن الواضح تماماً أنه أثناء التسعينيات، وبينما كان كل ذلك يحدث، حقق ميلتشان أحد أنجح الإنجازات فى تاريخ هوليوود، وحققها معتمداً على نفسه.

وما بين صيفى ١٩٨٥ و٢٠٠١، أنتج ميلتشان ما مجمله ٦٦ فيلماً، وأثر فى ثقافتنا الشعبية بأضخم أفلام العصر.